عمر بن عبد العزيز

(الخليفة الصوفى)

(٢) للأستاذ محمود شلبى

فى ذات ليلة خرج أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك يتفقد جنده ، وكان يمشى الى جواره مستشاره الأول عمر بن عبد العزيز ، واذا بصوت ينبعث نديا طريا فى أجواز الفضاء ، كان الصوت يأتى من بعيد وهو يترنم :

حى طيفا من الأحبة زارا ... بعد ما صرع الكرى السمارا
طارقا فى المنام تحت دجى الليـ ... ـل ضنينا بأن يزور نهارا
قلت ما بالنا جفينا وكنا ... قبل ذاك الأسماع والأبصارا ؟

ويثور أمير المؤمنين ، ويبعث فى طلب المغنى والذين ينشدون معه ، ويعزم على قتل خصائهم حسما للفتنة ، ولكن المستشار الامين — عمر بن عبد العزيز — يكون رأيه أن ينفوا ليس الا ، ويقول لأمير المؤمنين أن هذا تعذيب نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيأخذ برأيه ويكتفى بنفيهم بعيدا عن المعسكر .

.. وتحضر الوفاة سليمان بن عبد الملك ، فيستشير وزيره رجاء بن حياة فيمن يكون الخليفة من بعده ، فيشير عليه بعمد بن عبدالعزيز فيقول « أعلمه والله خيرا فاضلا مسلما يحب الخير وأهله » .

ويكتب سليمان وصيته : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من عبد الله سليمان بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز ، انى قد وليته الخلافة من بعدى ومن بعده يزيد بن عبد الملك ، فاسمعوا له وأطيعوا ، واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم عدوكم » ثم يختمها .

ثم يجمع الخليفة أهل بيته كلهم ويأمرهم جميعا أن يبايعوا على ما فى ذلك الكتاب المختوم .

كل ذلك وعمر بن عبد العزيز لا يعلم شيئا مما حدث ! ..

ويخشى عمر أن يكون سليمان قد أوصى له بالخلافة وهو شىء لا يرغب فيه ، فيذهب الى رجاء بن حياة ويستخلفه أن يخبره ان كان الخليفة أوصى بالخلافة من بعده له ؟ .. فيقول رجاء : « والله لا أخبرك حرفا واحدا مما أسره الى أمير المؤمنين »

ثم يموت سليمان بن عبد الملك .. ويجمع كعب بن حامد - أمير الشرطة - الناس للبيعة فى مسجد دابق ، ويأمرهم أن يبايعوا على ما فى ذلك الكتاب المختوم .

ثم يفض الكتاب ويقرأه على الناس فاذا فيه : « كتاب من عبد الله سليمان ابن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز ، انى قد وليته الخلافة من بعدى .. »

وتتقاطر الناس الى آخر المسجد حيث كان يجلس عمر بن عبد العزيز يهنئونه بالثقة التى وضعها فيه أمير المؤمنين ، ويبايعونه بقلوبهم ، فيستقبل ذلك كله بالدهشة ، ويقول كلمته الخالدة : « ان لله وانا اليه راجعون ! »

لقد كان عمر يرى فى ايلولة الخلافة اليه مصيبة نزلت عليه تستوجب الاسترجاع .. !

فأين هذه النفوس من نفوس الذين يتهالكون على حقير المناصب كما يتهالك الذباب على دنىء الطعام .. ؟

ويحمل الناس عمر بن عبد العزيز ويضعوه على المنبر ليقول لهم شيئا ، فلم يزد على أن قال : أيها الناس ، انى لست بمبتدع ولكنى متبع ، وان من حولكم الأمصار والمدن ان أطاعوا كما أطعتم فأنا واليكم ، وان هم أبوا فلست لكم بوال ..

أرأيت زهدا فى الخلافة أكثر من هذا .. ؟

ليس الرجل حريصا عليها ، ان انتظموا وأطاعوا كان بها ، وان اختلفوا وعصوا فاليهم خلافتهم ، يلقى بها فى وجوههم ، فانه لا يريدها .

ثم يستطرد عمر فيقول : « أيها الناس .. ان لى نفسا تواقة ، لا تعطى شيئا الا تاقت الى ما هو أعلى منه ، وانى لما أعطيت الخلافة تاقت نفسى الى ما هو أعلى منها وهى الجنة ، فأعينونى عليها يرحمكم الله .. »

أنظر كيف يكشف عمر عن خبيئة نفسه من حيث لا يدرى ..

انه يرى الخلافة وهى أعلى منصب فى العالم وقتئذ شيئا تافها ، لا ينبغى أن يكون مطلبا لنفسه العالية ، وانما المطلب هناك .. فى الدار الآخرة .. فى الجنة ..

صوفية من أرفع أنواع التصوف ، وربانية من أعلى مراتب الربانية .

ونادى عمر فى الناس بعد ذلك ، أن يقوموا لتشييع جنازة أمير المؤمنين .

وجىء بمراكب الخلافة ، وقيل لعمر تفضل اركب ، ليركب من وراءك .

وهنا انتفض عمر واستيقظ فيه احساسه العالى فقال : ما شاء الله لا قوة الا بالله .. لا أركب شيئا من هذه الدواب ، انى خليفة ولست بملك ، اصرفوا هذه الخيول جميعا ، ان معى دابتى الخاصة ، هذه بغلتى التى اشتريتها من مالى الخاص ، هذه هى التى أركبها ! ..

ثم يركب دابته التى اشتراها من ماله هو لا من أموال الدولة ويتمتم : بسم الله .. الحمد لله الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وانا الى ربنا لمنقلبون ..

لم ينس الرجل آداب السنة الشريفة فى شىء . حتى فى مثل هذا الجمع الجامع ، واللحظة الرهيبة ، يذكر الله ويتجه الى الله .

ويمضى عمر ومن ورائه الناس الى دمشق لاداء واجب تشييع الجنازة ، فيحدث منه ما هو أعجب مما حدث ..

يتجه به الناس نحو قصر الخلافة فى دمشق ، ويميلون بدابته ميممين وجوههم الى القصر ، فيصيح فيهم عمر : الى أين تذهبون .. ؟

فيقول رجاء بن حياة ، الوزير ، الى قصر الخلافة يا أمير المؤمنين .

قال عمر : هذا أمر مستحيل ، أأنزل فى قصر الخلافة .. ان هذا لن يكون .. !

قال رجاء : أنت الآن أمير المؤمنين ، والمنصب له أحكامه .

قال عمر : لا أنزل الا فى منزلى الخاص .

قال رجاء وقد تولاه اليأس : لك ما شئت يا أمير المؤمنين .

قال عمر : دعونى وما ترتاح اليه نفسى .. أنا سأسأل أمام الله .. أنا المسئول عنكم جميعا .. سيرد الى منزلى الخاص ..

فهل سمعت فى أى نظام من النظم القائمة الآن فى مشارق الأرض ومغاربها ، نظاما بلغ من التواضع لله والخوف من الله ، والحرص على حقوق الشعوب ، ما بلغه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الذى كان يحكم ثلاثة أرباع العالم ، ويأبى أن يركب مركبا تملكه الدولة ، أو ينزل فى منزل هو من الأملاك العامة ، أو حتى يسر سرورا ولو قليلا بتربعه على أكبر عرش فى الكرة الأرضية .. ؟

انك لم تسمع ولن تسمع ، ذلك بأنهم كانوا على كل شىء ، ونحن لسنا على شىء ..

كانوا على كتاب الله وسنة رسول الله ، يتبعون ولا يبتدعون ، ويتواضعون ولا يتكبرون ، ويزهدون ولا يطمعون .

كانوا أئمة بحق وخلفاء رسول الله بحق ..

رضى الله عنهم وأرضاهم .

والى اللقاء ، حيث نكشف عن عجائب وغرائب من سيرة الرجل .

« محمود شلبى »

* * *